

يَقْظَرُ فِكْرُ

دعوة لإيقاظ الروح واعمال العقل

www.feker.net

الكارتون الغربي والعولمة و الطفل العربي

الترويج لعالم الآلة والسوبرمان وصراع الحضارات

بقلم: أحمد عبد الحميد حسين



Design by Salah.ps | Feker

© جميع الحقوق محفوظة

يناير 2010

الشمس تختنق في قلب الغروب وتنثر آخر أشعتها في أحد أيام شهر رمضان منتصف تسعينات القرن الماضي.. أخرج من صلاة المغرب بدون حتى أن أكمل تسييح الصلاة، أجري مهرولاً للبيت لم يكن رغبة في الإفطار بقدر الرغبة في اللحاق بالمسلسل الكارتون الأمريكي " النينجا التيرتلز " .

كانت " ضفادع النينجا " مسار اهتمامنا بشكل كبير، لدرجة سيطرتها علينا في اللعب، والرسومات بكراريس الرسم، وجدران الفصول، ومقاعد الدراسة، وخانقاتنا مع بعضنا للتسمي باسم أحد أفراد النينجا التي كانت هي نفس أسماء أشهر رسامي فترة النهضة في أوروبا " مايكل انجلوا، وليوناردو، ورافاييل، ودوانتيلاوا " .



حلمنا نحن الصغار - الذين يعيشون في الأرياف - بتناول البيتزا، الأكلة المفضلة لدى الرباعي المتحول، هذا الأكلة التي لم نتذوقها، ولم نسمع عنها من قبل إلا بالمسلسل الكارتوني، تمنينا التزلج على الأرصفة بجذاء "البات يناج" التي كانت سمة دائمة لرباعي النينجا تشهق لها أنفاسنا، في الوقت الذي كانت تمطر السماء لدينا، لا نذهب للمدرسة بعدها لمدة ثلاثة أيام على الأقل من الوحل والطين.

صنع المسلسل لدينا - ومعه بالطبع عشرات المسلسلات الشبيهة والأفلام السينمائية الأخرى - نموذج "الأمريكي القوي المبهر" الذي يتم انتظاره في النهاية كي يخلص العالم من الأشرار، حينها عندما كنت أقرأ جريدة " أخبار الحوادث " - والتي كانت توزع في بداية صدورها بالتسعينات توزيعاً كبيراً - كنت منشياً برجال "إف بي أي - FBI" وهم يقبضون على "نوروييجا" حاكم بنما بتهمة الاتجار بالمخدرات، لم أعرف بالطبع إلا بعدها بسنوات أن القضاء على نوروييجا كان آخر مرحلة من مخطط الإدارة الأمريكية للسيطرة علي بنما وقناتها الشهيرة !!

جعلنا المسلسل ممتزجين بشكل تام مع الحلم الأمريكي بكل أشكاله وتفصيله، عن نفسي لم أتخلص من هذا الحلم وهذه الصورة تقريباً إلا في أواخر المرحلة الثانوية، مع الحصار الأمريكي للعراق، وضربها بالأسلحة المصنوعة من اليورانيوم المستنفذ، وظهور الأطفال العراقيين المشوهين على صفحات جرائد "الشعب" و"الأسبوع" مع بدأ ارتباطي بقراءتهما، واحتكاكي ببعض الأفكار الإسلامية المختلفة هنا وهناك.

انهارت في مخيلتي الصورة النموذجية للحلم الأمريكي، لكن لازلت مرتبطاً بالميديا الأمريكية، وصلت ذروة ارتباطي به في أفلام " الاستقلال" و" اختطاف طائرة الرئيس" و" سقوط الصقر الأسود"، حيث الأخير يحكي عن فشل عملية الإنزال الأمريكية في الصومال في بداية التسعينات.. في منتصف الفيلم تقريباً كنت قد تواصلت وجدانياً بشكل كبير مع الجنود الأمريكيين الذين سقطوا جندياً وراء الأخر برصاصات المقاومة الصومالية؛ والتي صُورت بالطبع في الفيلم على أنهم مجموعة من الوحوش المممج، في الوقت الذي كان فيه الجنود الأمريكيان ينتظرون المقاومة لتفرغ من صلاة المغرب قبل شن هجوم جديد..!

أشفقت للعجب على الجندي الأمريكي الذي اختبئ في بيت صومالي به أطفال ونساء، مبتسماً ومرتباً علي رأس الطفل الصومالي، كأنه نجدة جاءت للطفل قادمة من السماء..!!

التنافس على الطفل العربي

أمريكا واليابان هما المورد الأساسي لمسلسلات الكارتون بالعالم العربي، والكارتون الأمريكي ظل هو اللاعب الوحيد حتى فترة كبيرة منذ ظهور شخصية "الفأر ميكي" على يد شركة "والت ديزني"، وتوالى شخصيات لاقت شهرة ضخمة مثل "توم وجيري" و"الأرنب" "بغزبني"، وحتى ظهور "السوبر مان" "وبات مان" وغيرها من أفلام الكارتون الروائية الطويلة التي يخصص لها جائزة من ضمن جوائز أوسكار مثلها مثل الأفلام العادية.



ظلت الولايات المتحدة تنتج أفلامها الكارتونية في " والت ديزني " ولا تستورد أفلام من الخارج حتى كسرت " اليابان " هذه القاعدة ودخل أول فيلم ياباني مدبلج إلي أمريكا عام 1997 والذي حمل عنوان " **spirited way** " ، ويحكي قصة فتاة صغيرة تُحبس في عالم أرواح، ويجب أن تهرب لتحرير والديها من السحر الذي حولهما إلى خنزيران، وهذا الفيلم حقق أرباحاً في اليابان وحدها أكثر من 234 مليون دولار أمريكي في عام واحد متفوقاً على أرباح الفيلم الأمريكي الشهير " تيتانيك "، لكن الملحوظة أنه قبل دخول مسلسل " **spirited way** " لبلاد " والت ديزني " تم إدخال بعض التعديلات علي المسلسل الياباني ليتناسب مع ثقافة الطفل الأمريكي !!.

يطلق على المسلسلات الكارتون اليابانية اسم " الأنيمي " تمييزاً لها عن الأمريكية ، والأنمي هي كلمة يابانية تُستخدم لوصف الرسوم المتحركة اليابانية التي أصبحت ذات شهرة كبيرة في جميع أنحاء العالم ربما طغت كثيراً حتى على شهرة المسلسلات الأمريكية ، ومن أشهر المسلسلات اليابانية المعروفة في العالم العربي " جريندايزر " و " كابتن ماجد " و " أبطال الديجيتال " .



قبول الآخر .. الآلة و الحشرة

رصدت مجلة "جودنيوز تي في" في تقرير لها أهم 25 مسلسل كارتون مشاهد علي القنوات الفضائية بالعالم العربي، وجاء علي رأسها " توم وجيري " والذي احتل المركز الأول و من بعده مسلسلات مثل " بات مان " و" سلاحف النينجا "، و" أبطال الديجتال " و" سييدرمان" و" الساحرات " .. وغيرها .

مع وصف أحداث وأبطال المسلسلات بملحق المجلة غيرت قليلاً من قناة " الجزيرة " لأشاهد ما يُقدم لعالم الطفولة في قناة " سبيس تون" بعيداً عن صخب أحداث " البشير وأوكامبو " .. بعد المشاهدة عندها أدركت أن الفارق ربما لا يختلف كثيراً .



مسلسل " أبطال الديجتال " على سبيل المثال والذي يأتي ضمن المجموعة الـ 25 كأهم المسلسلات الكرتونية، يجسد مغامرة مجموعة من الأطفال الذين يدخلون بطريقة ما "لعالم الديجتال " حيث يجاربون الأشرار من الفيروسات ورموز الألعاب التي تريد أن تطيح بالعالم الافتراضي، بمساعدة مجموعة من الحيوانات غريبة الشكل والتي تمتلك قوي خارقة وأسلحة حديثة، ويطلق عليها اسم " المرافقون" وهم الحلفاء الأخيار داخل العالم الافتراضي، ويتغير هؤلاء "المرافقون " كلما انتقل أبطال المسلسل لمستوي أعلى في اللعبة.

الأبطال الأساسيين وهم مجموعة " الأطفال والمراهقين " ليس لهم الدور الرئيسي في محاربة الأشرار ، لكن العنصر الفاعل في المواجهة هي الحيوانات والمخلوقات غريبة الشكل قوية البنية التي تقف في وجه الشر الخدق الذي يريد الفتك بالعالم، حيث تُطرح فكرة القبول بحماية "الآخر المختلف" حتى ولو كان "حشرة" أو "حيوان غريب الشكل" ، بعدها تصير حماية الآخر الأجنبي المختلف عقائدياً وأيدولوجياً مقبولة ، طالما هذا المعنى تم ترسيبه بشكل بسيط، وسهل الهضم.

المسلسل يطرح أيضاً وبقوة فكرة " الضربات الاستباقية " للقضاء على الأشرار والخصوم قبل قيامهم بشن حرب أو هجوم، حيث تعودنا في الشرير دائماً بالمسلسلات الأخرى يكون هو البادئ بالهجوم، ويدخل المنقذ لردع الهجوم - غالباً في آخر اللحظات لزيادة الحبكة الدرامية- لكن الجديد في (أبطال الديجتال) أن أبطال المسلسل ومرافقوهم هم البادئون بالحرب على الأشرار، ويبحثون عنهم باستماتة للقضاء عليهم لتخليص العالم من شرورهم.

المسلسل يرسخ مبدأ الصراع وتقسيم العالم إلي محورين حيث قوى الصراع ممثلة بين جانبيين فقط لا غير وهو "محور الأختيار" وهم الأطفال ومرافقوهم من الحيوانات، و"محور الشر" وهم مجموعة الفيروسات أو أبطال الألعاب الشريرة التي يتم القضاء عليها بكل قوة .

عالم الديجتال .. قرية صغيرة

" عالم الديجتال " هو العالم الرقمي والبطل الرئيسي والحقيقي في المسلسل، عالم يلغي " الأنسنة " ووجود البشر لصالح الآلة و" الرقمنة " ، لا تجد فيه إلا أزرار، وحواسيب، وأجهزة عالية التقنية وأسلحة، يلغي الواقعية لصالح الافتراضية، صغير يرمز للعولمة والعالم الواحد، بلا حدود ولا هوية، يسهل التحكم فيه ومراقبته، عالم مفرداته القوي فيه، هو الأقوى على امتلاك الأسلحة الحديثة وعالية التقنية.

هذا العالم مفرداته هو مفردات العالم الغربي فقط.. الرموز والأشكال والخلفيات الموسيقية، بل وحتى الألوان؛ فاللون الغالب على خلفيات ومشاهد الأحداث بالمسلسل هو اللون الأزرق والمعروف بتفوقه في الثقافات الغربية بعكس الحضارات الشرقية التي منحت اللون الأحمر خصائص تفوقه، وتقدم اللون الأزرق على غيره من الألوان ظاهر في الحضارة الغربية المعاصرة (اللون الأزرق هو اللون الرسمي للمنظمات الدولية مثل اليونسكو واليونسيف والاتحاد الأوروبي)، ويمثل الأزرق في الذهنية الغربية لون الأرض كأحد التعبيرات عن مفهوم العولمة، وبأن العالم أصبح قرية صغيرة بلا حواجز ولا حدود.

ورغم أن المسلسل ياباني إلا أنه لا يوجد طفل يحمل وجهاً ذو ملامح آسيوية، أو بشرة سمراء، الوجوه الموجودة هي الوجوه التي تتميز ببشرة بيضاء وعيون ملونة، تمثل صورة الرجل الأبيض المنقذ الذي يحمل في إحدى يديه الحضارة، والأخرى يحمل بها بندقية يصوبها على الأشرار وغير المتحالفين والمتخلفين .

الصراع الدموي

"وظيفتنا الوحيدة لتواجدنا هنا هو ملاحقة والقضاء على الأشرار" .. " يجب أن نقضي عليهم فوراً، ونطهر العالم منهم " .

ربما يمكن أن تذكر تلك الكلمات يا حدى خطب الرئيس السابق بوش الابن وهو يلوح بيده معلناً بدء الحرب علي إحدى دول " محور الشر " بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، لكنك ستفاجئ أن هذه واحدة من عشرات الجمل في حلقة لا يتعدى طولها ثمان أو تسع دقائق على لسان أحد أبطال المسلسل الأخيار وهم مارينز " الأطفال والمرافقين " .

المسلسل لا يطرح خلفية ما لأحداث على الجانب الآخر كما يحدث في بقية المسلسلات الكارتونية الأخرى التي تعرض حياة وأفكار أو مؤامرات الأشرار، المسلسل فقط عبارة عن مطاردة مستمرة للقتل والتدمير، حيث لن تنجح أي وسيلة أخرى سوى استخدام القوة للوصول إلى الهدف المنشود، وهو تطهير العالم من الأشرار، والقضاء عليهم .

أحد أبطال الحلقات الأشرار يدعي " نقار الحشب " في الحلقة الثالثة والأربعين الجزء الأول مهمة هذا الشرير هي اصطياد أحد الأطفال الأبطال والجري وراءه لاقتناصه وقتله، وقبلها يقول لها: " نحن أعداء وعلى أحدنا أن يقتل الآخر.. ولا تقلق سأبدل جهدي حتى أقتلك بسرعة "!!..

السوبر مان.. الإنسان الإله

فكرة الشخصية القوية المبهرة أو " السوبر مان " أحد أهم الأفكار الرئيسية في عالم الكارتون المشهورة والمعروفة، والتي قد تحمل أكثر من ملامح منها تأكيد أنّ القوة دائمة تأتي من (المختلف - الآخر - البعيد فتأتي من عالم آخر (السوبر مان القادم من كوكب كريبتون) أو أشخاص غرباء (الحشرات والحيوانات المتحولة في أبطال الديجيتال - والنينجا تيرتلز) أو قوة غير طبيعية أو آلة (بات مان - سييدر مان - جريندايزر)، والفكرة تكمن في القبول هذا الغريب طالما سيتم به إنقاذ الإنسانية والعالم .



الملح الثاني أسطورة الرجل الخارق السوبرمان واستلهام نظرية نيتشه في طرحه لـ " ثقافة السوبر مان وموت الإله "، والتي تنتهي لأسطورة تجسد الرجل الأمريكي الأبيض المخلص للعالم من الشرور، الذي يمتلك زمام الأمور، ويعرف كل الحلول، الأبيض الذي لا يُقهر والذي ينقذ العالم من الأغياء والأشرار، سموح عطوف، يمتلك العلم والمعرفة والتقنية، يعرف الفيروسات والكائنات الغريبة أكثر من معرفته لأبنائه، لا تقف أمامه كل مشاكل الدنيا على سعتها وكثرتها، وهو في النهاية الحاكم بأمره، والإله في زمن بلا آلهة !!.



وهذا الملح النيتشوي لا يمكن أن يتحقق إلا بموت الإله، واكتساب صفاته من القدرة والقوة الخارقة والقدرة على التحكم في العالم ومقتضياته ومقاديره...!! بخلاف الإنسان العادي الذي يدعن للطبيعة، إنسان وظيفي يُعرّف في ضوء وظائفه الاقتصادية والبيولوجية، إما إنسان اقتصادي أو إنسان جسماني أو جنسي أو خليط منهما.

التمركز حول الأنثى



في تقرير " جود نيوز تي في " كان هناك أكثر من مسلسل يندرج تحت اسم " مسلسل الفتيات " فجاء في المركز الخامس المسلسل الفرنسي " الجاسوسات " ، والمسلسل - بتعريف التقرير- يُظهر الفتاة كبطلّة خارقة تستطيع أن تنقذ العالم، بخلاف العديد من المسلسلات التي خلدت الرجل الخارق، ويقوم على نفس فكرة الفتاة الخارقة المسلسل الفرنسي أيضاً " الساحرة " " والمسلسل الأمريكي " فتيات القوة ".

ورغم أن المسلسلات لا تحتوي على ما يمنع مشاهدة الأولاد لها، وفي النهاية موجهة للأطفال على أي حال فضلاً عن كثير من مشاهديها من الأطفال الذكور وفقاً للتقرير؛ فلا يعلم لماذا تصنف على أنها "مسلسلات للفتيات فقط" بل يحمل إحداها عنوان هذا التصنيف بالضبط وهو مسلسل مشهور لكن لم يرد بالقائمة وهو "كوكب زمردة.. كوكب للبنات فقط" !!..

الفكرة المطروحة والمروج لها من خلال الكارتون المخصص للفتيات يتوازي مع طرح ما يسمى "حركة التمركز حول الأنثى" وهي إحدى الحركات الجديدة في عصر ما بعد الحداثة، والتي ظهرت ناكرة كل الثوابت والكليات، والتي تؤكد فكرة الصراع بشكل متطرف، فكل شيء ما هو إلا تعبير عن موازين القوى وثمره الصراع المستمر.!

وبالرجوع للمسيري في كتابه "العلمانية الشاملة والعلمانية الجزئية" يعتبر "حركة التمركز حول الأنثى" جزءاً من آليات علمنة المرأة الشاملة، ويرى أنها حركة تعمل على عزل المرأة عزلاً تاماً عما حولها، بحيث تتحول إلى فرد فقط وتصبح مكثفية بذاتها، بل ويعتبر تلك الفكرة الأساس الصلب للرؤية العلمانية الشاملة ومن أهم تجلياتها في الوقت نفسه.

حركة التمركز حول الأنثى بخلاف حركات تحرير المرأة التي تطالب بمساواتها مع الرجل في الحقوق، تقف على النقيض من ذلك. فهي تصدر عن مفهوم صراعي للعالم؛ حيث تتمركز الأنثى على ذاتها، ويتمركز الذكر هو الآخر على ذاته، ويصبح تاريخ الحضارة البشرية هو تاريخ الصراع بين الرجل والمرأة وهيمنة الذكر على الأنثى ومحاولتها التحرر من هذه الهيمنة.

وتصل هذه الرؤية قمتها حينما تقرر الأنثى أن تدير ظهرها للآخر/الذكر تماماً، فهي مرجعية ذاتها وموضع الحلول ولا تشير إلا إلى ذاتها، فهي سوبرإمرأة **superwoman**؛ والخير أن تعلن استقلالها عن الرجل كلية سواء على كافة المستويات وحتى الجنس لتصل لأرقى صورها والمتمثلة في "السحاق".

ويصبح الهدف من حركة التمركز حول الأنثى - كما يقول المسيري - ليس تحرير المرأة، أو عدم تحويل الاختلاف بين الجنسين إلى تفاوت.. إنما تحسين كفاءتها في الصراع مع الذكور.

توم وجيري..العلمانية الشاملة



قد يرى البعض أنّ هذا التحليل للمكون الثقافي الموجود بالكارتون هو طرح عالي التجريدية، ومتربص بالأحداث مستحضراً فكرة " المؤامرة " ويرد يانّ الناس تشاهد أفلام العنف ولا تنزل إلى الشوارع لتتقاتل أو يقومون بدور الكابوي، أو تخرج للمناطق الصحراوية تنتظر الأطلاق الفضائية والكائنات الغريبة !!..

لكن هذا الكلام موجود بالفعل سواءً كان بشكل واقعي حقيقي أو بشكل نسبي، فنسبياً ليس بالضرورة الملحة أن يتم وجود العنف بشكل مباشر كنتاج ورد فعل وقّتي، وواقعياً هو موجود بالفعل في جرائم مقززة لم يتخيل

وجودها في مجتمع شرقي ملتزم .! وليس من الطبيعي أن يتم إلغاء عشرات بل ومئات دراسات الأبحاث النفسية المتعلقة بالتربية والطفل والإعلام التي نهت على الآثار النفسية المترتبة على هذا الكم الكبير من العنف الموجود بالإعلام وتأثيره سواءً على الكبار أو الصغار، وانحسار لأخلاقيات وقيم، ووجود جرائم غير منطقية بالشارع العربي رغم توازيها مع موجة تدين غير مسبوقه .

فضلاً عن أن ما يقدم إعلامياً وثقافياً قد يحتوي في مضامينه وبناءه - بقصد أو بدون - جزء كبير من مفاهيم يتم بها علمنة مجتمعية شاملة تبدأ بترسيخ هذه القيم السلبية مبكراً في العقول الصغيرة.

يرى المسيري أن كثيراً ممن يساهمون في صنع هذه المنتجات وصياغة هذه الأفكار وإحداث هذه الانقلابات قد يفعلون ذلك وهم لا يدركون تضميناتها الفلسفية ودورها القوي في صياغة الإدراك والسلوك. ولذا يمكن أن يكون هناك مجتمع يتبنى بشكل واضح ظاهر أيديولوجية دينية، ولكن عمليات العلمنة الشاملة البنيوية الكامنة من القوة بحيث إنّها توجه المجتمع وجهة مغايرة تماماً لا يشعر بها أعضاء المجتمع أنفسهم.

يضيف: " والعلمنة النبوية الكامنة هذه، من خلال أبسط الأشياء، لا تتم على مستوى البيئة الاجتماعية والمادية البرّانية، وإنما تتغلغل لتصل إلى باطن الإنسان، إلى مستوى عالم الأحلام والرغبات .. وهنا سيأتي دور الصور البريئة. فصديقنا الوظيفي سيشاهد فيلماً أمريكياً يقوم بعلمنة وجدانه ورغباته، فالموقف الأساسي في معظم هذه الأفلام هو بطل لا يدين بأية مرجعيات أخلاقية (سوى القوة والعنف والسرعة)، يقع في حب فتاة جميلة هي البطلة -ولعل كلمة حب هنا كلمة متخلفة- قليلاً، فهو في الواقع يشتهيها وحسب، وعلى استعداد أن يتعايش معها..

وتظهر بعض الصعوبات التي يتجاوزها البطل الدارويني، ويفوز بما يشتهي وينغمس في الإشباع الفوري. ولا يختلف هذا عن الكارتون المسمى (توم وجيري) حيث يقوم الفأر اللذيذ الماكر باستخدام كل الحيل - التي لا يمكن الحكم عليها أخلاقياً، فهي لذيدة وذكية وناجحة- للقضاء على خصمه القط الغبي ثقيل الظل. ولنلاحظ أن القيم المستخدمة هنا قيم نسبية نفسية وظيفية برجماتية، لا علاقة لها بالخير أو الشر، قيم تشير إلى نفسها وحسب، ولا تفرق بين الظاهر والباطن . كما أن الصراع بين الاثنين لا ينتهي، إذ بدأ ببداية الفيلم ولا ينتهي بنهايته. فالعالم، حسب رؤية هذا الكارتون الكامنة، إن هو إلا غابة داروينية مليئة بالذئاب التي تلبس ثياب القط والفأر: توم وجيري. وقد أثبتت إحدى الدراسات أن أفلام توم وجيري هذه أكبر آلية لنقل فكرة حسم المشاكل عن طريق العنف للأطفال".



يضيف قائلاً: " هوليوود لعبت دوراً جوهرياً في علمنة وجدان سكان الكرة الأرضية، وبخاصة من خلال أفلامها البريئة غير الفاضحة، مثل أفلام رعاة البقرة المسماة (الويسترن Western أو الكوبوي Cowboy وأفلام الحرب، فالرؤية العلمانية الشاملة كامنة فيها، بشكل يصعب على الإنسان اكتشافه. وأفلام الويسترن بالذات تنقل لنا رؤية علمانية داروينية إمبريالية عنصرية بشعة متحيزة ضدنا " .